الفصل العاشر

البحث التاريخى

مقدمة :

إن البحث التاريخى يتعلق بماضى الإنسان . ومع أن أحد أهدافه هو إعادة بناء هذا الماضى فإن ذلك لا يمكن تحقيقه كاملاً . إن مشكلة المؤرخ مشابهة لمشكلة عالم النفس الذى يدرس مادة تاريخية لدراسة الحالة ويحاول من خلال دراسته لهذه المادة أن يعيد بناء طبيعة الشخص الذى تتعلق به . إن المعلومات تكون دائماً جزئية وإعادة بنائها يقدم صورة باهتة وليست صورة كاملة . ويمكن لدراسى تاريخ الحالات الشخصية أن يصلوا إلى صور مختلفة من إعادة البناء حتى لو كانت المعلومات التى استندوا إليها واحدة . بيد أن لدراسى تاريخ الحالات الشخصية ميزة على المؤرخين هى أنهم يستطيعون أن يقوموا بمزيد من الدراسة عن حالاتهم وأن يتحققوا من النتائج التى وصلوا إليها من خلال جمعهم لمواد ومعلومات إضافية . وهذا هو ما يفعله عالم النفس الإكلينيكى . فمن خلال المعلومات التى يجمعها عن الحالة التى يدرسها يحاول أن يعيد بناء شخصية الفرد موضع الدراسة . ثم يقوم بالتحقق من صدق الصورة التى كونها عن الشخص بملاحظته . وهذا مالا يستطيعه المؤرخ . لأن المؤرخ لا يستطيع أن ينظر إلى المستقبل ليتحقق من صورة الماضى التى صاغها أو أعاد بناءها . ولكن التاريخ ليس فقط مجرد إعادة بناء أو صياغة الماضى، وإنما هو صورة لروح البحث الناقد الذى يهدف إلى عرض صادق لحوادث الماضى .

إن القول بأن المؤرخين يحاولون كتابة التاريخ، هو قول صادق فى بعض النواحى، ولكن الكثير مما كتب عن الماضى قد يكون سيئ السمعة إذا ما قصد به التحريف أو التشويه . ومن المعروف أن كثيراً من البحوث التى يقوم بهاطلاب الدرجات العلمية فى كليات التربية ذات طابع تاريخى . كما أن ما يقوم به الباحث فى أى مجال علمى بمراجعة الدراسات السابقة فى موضوعه هو فى حد ذاته دراسة تاريخية لأنه يستعرض ويحلل ما قام به الآخرون فى الماضى . يضاف إلى ذلك أن العقود الأخيرة

الماضية شهدت تقارباً بين البحث التاريخى والبحث فى ميادين أخرى مثل الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس . وقد اقام المجلس الأمريكى للبحوث فى العلوم الاجتماعية بجهود مثابرة لكى يحمل الباحثين فى هذه التخصصات وغيرها من التخصصات المرتبطة على تنسيق جهودهم حتى يستفيد كل منهم من عمل زميله وما يستخدمه من أساليب وطرائق منهجية فى مجال تخصصه . وهذا النوع من البحوث المشتركة يعرف بالبحوث المتداخلة التخصصات . ويقدم لنا تقرير المجلس الأمريكى للبحوث الذى أعده جوتستشوك Gottschalk وآخرون عام ١٩٤٥ مثالاً لهذا النوع من البحوث حيث تكاتفت معرفة عالم الأنثروبولوجيا وعالم الاجتماع والمؤرخ فى الوصول إلى تفاهم كامل حول استخدام الوثائق الشخصية في البحث .

ويجب أن ينظر إلى أن ما يقوم به المؤرخ شبيه بما يقوم به العالم فى ميدان العلوم الطبيعية . فالمؤرخ فى صياغته للماضى أو إعادة بنائه له يستخدم الرموز والكلمات لتحديد العلاقة بينها وبين الأحداث الماضية . وهذا يمثل طرفى المعادلة فى العلوم الطبيعية . فالمعادلة تعبر عن العلاقة بين العمليات القائمة فى التجربة . والفرق الرئيسى بين العالم الطبيعى والمؤرخ أو الأول يستطيع أن يعيد إجراء التجربة ليتحقق من صحة هذه العلاقة . أما المؤرخ فيشق عليه ذلك . وينبغى أيضا أن ننظر إلى دراسة التاريخ التربوى بنفس الطريقة التى ينظر بها إلى دراسة علم النفس التربوى أو علم الاجتماع التربوى، أى بتطبيق وسائل البحث الخاصة بالنظام العام على مشكلات مؤسسة معينة كالمدرسة مثلاً . وينبغى أن نشير هنا إلى أن علماء النفس قاموا بدراسات تقع فى نطاق البحث التاريخى. فكتابات ألبورت Allport (١٩٤٢) على سبيل المثال عن استخدام الوثائق أو السجلات الشخصية فى البحث كان لها تأثير على مستخدمى المنهج التاريخى .

مراجع عامة للبحث التاريخى :

إن أهم مرجع عام باللغة الإنجليزية يقدم عرضاً شاملاً لجميع أنواع المراجع هو Basic Reference Sources نشره لويس سورز (شيكاغو : اتحاد المكتبات الأمريكية) وهناك دليل شامل للمصادر والمراجع في ميدان التربية وهو من تأليف كارتر

الكسندر C. Alexander وأرفيد بروك A. Bruke (نيويورك كلية المعلمين - جامعة كولومبيا) وهناك مساعدة قيمة للباحثين يقدمها كتاب : Guide to Research in Educational History تأليف وليم بركمان W. Brichman جامعة نيويورك . ويتوجب على الذين يريدون القيام بدراسات تاريخية فى التربية أن يبدأوا بدراسة المواد المكتوبة من قبل المؤرخين عن منهج البحث التاريخى، مثل كتاب جوتستشوك ١٩٥٠ عن الطريقة التاريخية وهو كتاب كلاسيكى . ويعتبر كتاب كل من بارزون وجراف Barzun & Graff ١٩٧٠ عن المشكلات الرئيسية لمعالجة المعلومات التاريخية من الكتب القيمة . وقد كتب المؤرخ دانيال Daniel (١٩٧٢) عن «كيف ولماذا نكتب التاريخ؟» والمؤرخ المشهور نيفينز A. Nevins أيضاً بحث فى مثل هذه الأمور، وقد قام بيلنتجون Billington (١٩٧٥) بتجميع بعض هذه الكتابات . كذلك فإن العمل القيم الذى قام به المؤرخ مارستون Marston يزودنا بتوجيهات عن كتابة التاريخ بما فيها كتابة التاريخ القصصى أو الروائى . (Travers: p. 376)

وبالنسبة للكتابات العربية فيمكن لباحث تاريخ التربية أن يرجع إلى حولية الثقافة العربية لساطع المصرى وتاريخ التعليم فى مصر لأحمد عزت عبدالكريم ومستقبل الثقافة فى مصر لطه حسين وتاريخ التربية فى الشرق والغرب لكاتب هذه السطور .

وهناك مراجع عامة أخرى كثيرة يستطيع الباحث أن يجدها بسهولة . وعلى الطالب أن يتذكر أن التاريخ يكتب لأغراض مختلفة منها الوصول إلى المعرفة ومحاولة التنبؤ بالمستقبل وتفسير الأحوال البشرية ومنها أنه مصدر للإلهام وهكذا وتساعد هذه المراجع العامة طالب البحث في الوقوف على الأعمال التى تمت فى الميدان وتكاملها وتفسيرها ودلالتها والاتجاهات التى تمثلها وغيرها من الأمور التى تعتبر مساعدات قيمة وثمينة للبحث، وتوجد أمثلة لهذا النوع من المراجع فى شكل مقالات موجزة بدوائر المعارف مثل ما كتب عن تاريخ التربية بدائرة معارف البحث التربوى . فهذا يعتبر مثالا ممتازاً لتكامل قدر كبير من المادة العلمية التى تلخص طبيعة البحث المتغيرة من القرن التاسع عشر عن تاريخ التربية طوال هذه الفترة . ومن

المراجع العظيمة فى تاريخ التربية التى لا يستغنى عن قراءتها أى دارس لتاريخ التربية كتاب مولهرن Mulhen وكتاب باطس Butts وكتاب بروبيكر Brubacher وتفصيل بياناتها موجود فى نهاية الكتاب فى قائمة المراجع .

ويحسن بالباحث التاريخى انتقاء مراجعه التى يستخدمها وأن يستخدم عدة معايير فى حكمه على قيمة أى كتاب أو مقال مثل : مدى كفاءة المؤلف . هل ناشر الكتاب أو الدورية مشهور وموضع احترام كبير ؟ ويمكن للباحث أن يفحص هذا مع موظف المكتبة الخاصة بالمراجع وأن يراجع تاريخ النشر لمعرفة حداثة موضوع البحث .

بعد هذه الخطوة يكون الباحث مستعداً للاستزادة من القراءة المكثفة واقتباس المذكرات . ويستخدم الباحث عدة طرق للقراءة ذات خصائص مختلفة منذ البداية إلى أن يتم موضوعه . وحتى يحصل الباحث على نظرة عامة لموضوعه وتكوين تخطيط مبدئى يحتاج إلى استعراض كثير من المادة . وعليه أن يحذف ما ليس له علاقة، أو ما يتبين أنه غير نافع . وبعد حصوله على قائمة بالمراجع التى يعتقد فى نفعها، يبدأ بدراسة مادة دراسته بصورة أكثر تركيزاً ؛ وتحتاج بعض المراجع إلى أن تقرأ بجملتها بدقة، بينما فى البعض الآخر تقرأ أقسام معينة وثيقة الصلة بالموضوع ويهتم الباحث بقراءتها تفصيلياً .

أغراض البحث التاريخى :

للبحث التاريخى أغراض متعددة . منها كما أشرنا الوصول إلى المعرفة ومحاولة التنبؤ بالمستقبل وتفسير الأحوال البشرية . ومنها أنه مصدر للإلهام . ويهمنا هنا الأغراض التى تتصل بالتربية . وتسمح المعلومات التاريخية لطالب التربية بربط الحاضر بمصادره وبرؤية الأنشطة والممارسات الخاصة فى ضوء ما آلت إليه . إن الاطلاع على تاريخ الممارسات التربوية والنظم التربوية يسمح للمرء بالتفكير مثلا فى علاقة عالمه التربوى بالمشكلات الراهنة . ويعطينا البحث التاريخى تلك الرؤية التى نستطيع بها تقييم الحاضر وتحديد المستقبل، ذلك أن رياح التغيير فى التربية تتزايد بسرعة لكى تجارى سرعة ثقافتنا المتغيرة . وتسمح لنا ثقافتنا التاريخية أن ندون حالة التغيير . إلا أننا نعرف أن التغيرات فى المؤسسات العتيقة لا تحدث بسرعة ولكنها يمكن أن تتغير بصورة جزئية تدريجية .

إن الرؤية التاريخية وثيقة الصلة بكل مستوى من المستويات التربوية . فالمدرسون مهتمون بتنظيم حجرة الدراسة، فهل هناك نظام أفضل ؟ وما هى الظروف التى يمكن فى ظلها تحقيق أشكال مختلفة لتنظيم حجرة الدراسة ؟ إنه سؤال تجريبى . وهو سؤال محتمل أيضاً فى البحث التاريخى . فالتاريخ يشير إلى الظروف التى ظهرت فى ظلها أشكال اجتماعية معينة . وأسلوب السيطرة (الأوتوقراطى) فى حجرة الدراسة كان بارزاً فى عهد كانت فيه السلطة من الطراز السائد للضبط الاجتماعى، لا التبادل الحر للأفكار والمشاركة فى السلطة والمسئولية . وحين كانت التربية ميزة للقلة أكثر منها حقاً للكثرة، كانت المعرفة التسلطية مفضلة على البحث المفتوح . وهذا النوع من الدراسة أو البحث يجعل الباحث - دارساً كان أو ممارساً- على صلة بمدى واسع من تفسير الأشياء . كيف كانت أو تكون ؟ وإذا كانت التطبيقات الجارية فى حجرة الدراسة ليست كافية لحفز التلاميذ أو السيطرة عليهم فربما يكون ذلك لأن حجرة الدراسة لا تتصل بالتاريخ، ماضيه أو حاضره . ويبدو أن السؤال الذى نريد أن يسأله كل مدرس هو : ما أفضل تنظيم للفصل يناسب فصلى ؟ إن التاريخ يهتم بالزمان والمكان والمواقف . فتاريخ حركة منتسورى مثلاً يكشف أنواع المواقف والشخصيات التى كانت مسئولة عن تطبيق هذا النظام . وإن انتقال التفسير من العمل إلى الفرد يمكن أن يقدم للمدرس نموا كبيراً فى خبرته . ويمكن للبحث التاريخى أن يقدم مساعدة كبرى لمفهومنا عن مدى مناسبة الممارسات التربوية . ذلك أن الأشكال أو الطرق التربوية تخضع أحياناً لسلسة من المتغيرات بحيث تحمل الأشكال الحالية تشابهاً واهياً لما قصده الرجال أو النساء الذين ابتدعوها فى الماضى . ولقد وقعت كل من اختبارات الذكاء ونظريات ديوى فى التربية البرجماسية وطريقة منتسورى وغيرها ، فريسة لفوضى الزمن وعدم كفاءة التطبيق . ويمكن للبحث التاريخى أن يكشف عن المعلومات التى تسمح لنا باستنتاج معين عن العلاقة الضرورية بين الزمن والموقف والطرق التربوية . وتكشف التراجم الأدبية وتراجم معظم الرجال البارزين بوجه عام، الذين قدموا خدمة ما للمعرفة ، عن معنى ومرمى أفكارهم . وينظر إلى الفلسفات أو النظريات فى التربية عادة على أنها جزء من ترتيب عقلى للأفكار فى علاقتها بلحظة تاريخية . ولربما كان للخطة التربوية لأفلاطون إمكانية التطبيق عند الإغريق

القدماء . ولكن علاقة أفكاره بالمجتمع المعاصر الذى يستند إلى الحراك الاقتصادى تبدو ضعيفة . ويمكن أن يحدث تغيير فى نفس الفكرة، عندما تجد إسهامات البحث التاريخى الحاجة إلى التجديد . وتحيطنا النظرة التاريخية علماً بالظروف التى ظهرت فى ظلها الأشكال التربوية، فواضح مثلاً أن العطلات الصيفية كانت تكيفاً لمجتمع زراعى وكم من الأشكال والأنشطة الأخرى لها تبرير فى المصطلحات المعاصرة .

وتتطلب الدراسة التاريخية فى الباحث خبرات وكفاءات معرفية وعقلية ومهارية معينة . لذلك يجب أن يتحقق له نظرة واسعة تمكنه من الإدراك الصحيح للأحداث والوقائع والحقائق التاريخية وتناولها بالوصف والتحليل والتحقيق على نحو أكثر دقة وصحة وشمولاً . لأن دراسة المادة التاريخية تحتاج إلى معايير دقيقة للنقد الداخلى والخارجى والتحقق من صحتها وصدق مضمونها . كما يجب على الباحث أيضاً مراعاة الدقة والصحة والأمانة الفكرية وعدم التحيز للأهواء والرغبات الشخصية أو العنصرية أو العقائدية، وتوخى كفاية الأدلة فى التوصل إلى النتائج والأحكام . وترتبط الظواهر الاجتماعية والتربوية بوقائع المجتمع الماضية وتتأثر بها . لذا فلابد عند دراسة هذه الظواهر من تتبعها ومعرفة نشأتها واتجاهاتها العامة والقوانين التى تحكمها ومختلف العوامل التي أثرت فيها .

وتزودنا البحوث التاريخية فى مجال التربية بمعلومات دقيقة لتاريخ التربية والتعليم . وتمكننا من التعرف على الجذور التاريخية للنظريات التربوية والاتجاهات والسياسات التعليمية في الماضى . كل ذلك يفيدنا فى تحديد الخطوات اللازمة لبحث عملية التعليم فى الحاضر والمستقبل .

وكثيراً ما يخصص الباحث فى البحوث والدراسات التربوية فصلاً معينا للدراسات والاتجاهات السابقة التي أجريت فى فترات ماضية، ذلك لأن معرفة هذه البحوث ونتائجها السابقة أمر له أهمية بالنسبة للباحث . إذ تزوده هذه الدراسات ببيانات ونتائج معينة وأفكار واتجاهات أو ممارسات معينة في الماضى تتصل أو ترتبط بموضوعات بحوثهم فى هذا المجال .

ومن كل ما تقدم يمكننا أن نخلص إلى أن منهج البحث التاريخى يصف ويسجل ما وقع في الماضى من أحداث تتعلق بالمشكلات الإنسانية وبالقوى الاجتماعية التى شكلت الحاضر . ولا يقف عند هذا الحد فحسب بل هو يدرس هذه الأحداث ويحللها ويفسرها وينتقدها على أسس منهجية علمية دقيقة تمكن الباحثين من وضع مبادئ وقوانين متعلقة بالسلوك الإنسانى للأفراد والجماعات والنظم الاجتماعية والتربوية .

فوائد البحث التاريخى :

ينظر إلى التاريخ أحياناً على أنه مجرد كومة من التراب . فالتاريخ وفق هذه النظرية هو مجرد ماض عديم القيمة أو الفائدة . والواقع أن هذه النظرية خاطئة ولا ينبغى أن تصرف أنظارنا أو تحول انتباهنا عن أهمية دراسة التاريخ، ذلك لأن التاريخ يمثل أحد الأبعاد الثلاثة للزمن فى مفهومه العضوى، الماضى والحاضر والمستقبل . فحاضر اليوم هو ماضى الغد ومستقبل الأمس . وهكذا تتحقق الوحدة العضوية للزمن ويصبح الماضى ضروريا لفهم الحاضر وكلاهما ضرورى لرسم معالم المستقبل . يضاف إلى ذلك أن التاريخ يمثل ماضى الإنسان فى كفاحه من أجل تحقيق مثله العليا وأمانيه المنشودة، ولا غنى للإنسان عن دراسة ماضيه باعتباره كائناً اجتماعياً . ولذلك ينبغى عليه أن يعرف تاريخه وتاريخ أعماله وآثاره . وإذا كان للتاريخ هذه الأهمية كان لتاريخ التربية أهمية أخرى لا تقل عنها إن لم تزد عليها . ذلك أن تاريخ التربية يوقفنا على تجارب الإنسان وخبراته عبر العصور . ويكشف لنا عن المثل العليا للشعوب وآمالهم الكبار ويوضح لنا اختلاف الممارسات التربوية واختلاف أسسها وفلسفتها واتجاهاتها .

وهكذا يمكننا أن نميز كما سبق أهمية دراسة تاريخ التربية . فإلى جانب الأهمية الأكاديمية والعلمية والحضارية، هناك أيضاً الأهمية النفعية التى تتمثل فى الدروس المستخلصة من دراسة هذا التاريخ . ذلك أن الفرق الجوهرى الذى يميز الإنسان عن غيره من سائر المخلوقات هو احتفاظه بماضيه وحرصه على نقل ثقافته المتراكمة من جيل إلى آخر . فالتاريخ التربوى هو تجارب الإنسانية وخلاصة كفاحها على مر العصور فى مختلف المجتمعات من أجل الارتقاء بالجنس البشرى وتقدمه : قال تعالى

«وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا» . وفى عبارة مشهورة للسياسى الألمانى المعروف بسمارك : «إن الحمقى هم الذين يقولون إنهم يتعلمون من تجاربهم وأنا أفضل أن أتعلم من تجارب الآخرين» فالتاريخ نفسه مهم وفيه دروس مستفادة . ومن الأقوال المأثورة عن المؤرخ البريطانى تريفليان قوله : «كلما تقدمت بى السن ولاحظت اتجاه الأمور فى عالمنا الراهن تأكدت أن التاريخ يجب أن يكون أساس التربية الإنسانية» وهو يعتقد أنه بدون المعرفة التاريخية تظل المعرفة موصدة فى وجه الإنسان .

ويمثل البعد التاريخى للتربية أهمية معرفية ومهنية لمعلمى المستقبل . وتزداد خبراتهم غنى من خلال معرفتهم لتطور الممارسات التربوية وتصور المجتمعات لها على اختلاف أشكالها ، وأيضاً من خلال النماذج التربوية لمختلف الأمم والحضارات ، وما يتحقق من وراء كل ذلك من دروس وتجارب مستفادة يمكن أن يكون لها أثر طيب فى تعميق فهمنا للعملية التربوية . وهكذا يمكن بإيجاز أن نلخص أهمية البحوث التاريخية فى النقاط الآتية :

أ - تزودنا بالجذور التاريخية للنظريات والممارسات التربوية التى تطورت وانتشرت وتقدم لنا تفسيراً لها .

ب- توفر للباحثين المادة العلمية اللازمة لهم لإدراك الصلة الوثيقة بين التربية وبيئاتها التربوية والاجتماعية بكل مكوناتها والعوامل المختلفة المؤثرة والمتأثرة بها .

جـ- تساعدنا نتائج البحوث التاريخية فى التربية على تعميق فهمنا للمشكلات التعليمية الراهنة .

د- تقدم لنا البدائل والحلول لمواجهة المشكلات التعليمية من خلال ما تزودنا به من تجارب الأمم الأخرى والدروس المستفادة منها .

اختيار الموضوع :

توجد طرق كثيرة لكتابة التاريخ التربوى ، وفيما يلى أمثلة نموذجية لها :

١- عمليات مسح تحاول وصف تاريخ التربية من أقدم الأزمنة حتى الوقت الحاضر .

٢- تناول جغرافى يحدد منطقة معينة أو إقليماً أو مدينة أو جماعة ثم كتابة تقارير عن تاريخها التربوى مثل التربية الإسلامية مثلاً .

٣- التناول المقارن الذى يدرس ويقارن النظم التربوية أو المشكلات فى بلدين أو أكثر كالمقارنة بين التعليم في مصر وسوريا مثلاً، أو بين التعليم الأمريكى والبريطانى .

٤- دراسة حياة أو أعمال كبار المربين فى الماضى، وأثرهم على التربية قديماً وحديثاً .

٥- دراسة المؤسسات الكبرى للتربية التى قامت بدور هام فيها مثل دور اليونسكو مثلاً أو غيرها من المنظمات العالمية أو الإقليمية أو المحلية .

٦- اختيار مشكلة معينة فى ميدان التربية وتتبع تاريخها، مثل موضوع تطور إعداد المعلم، أو ما شابه ذلك .

٧- وصف للتطور التاريخى التربوى فى عصر معين، مثل التعليم فى فلسطين قبل الانتداب البريطانى أو فى ظل الانتداب البريطانى أو بعده .

٨- تقرير عن تطور ونتائج حركة معينة فى التربية، مثل الحركة الطبيعية في التربية أو الحركة الإنسانية أو ما شابهها .

وتوجد مجلات تربوية تساعد الباحث المبتدئ وتعطيه فكرة عن الموضوعات التى يمكن أن تشكل الأساس لدراسات أكثر تحديداً فى مجال التاريخ التربوى .

إن اهتمامات الباحث يجب أن تكون العامل الأول الحاسم فى اختيار موضوع البحث . فالبحث المثمر يقوم دائماً على حب الاستطلاع العقلى . ومع ذلك فمعظم الباحثين المبتدئين يعملون لتحقيق متطلبات مقررات دراسية معينة . ولاشك أن طبيعة هذه المتطلبات ومدى الدراسة يحددان الموضوعات المطروحة .

ويجب عند اختيار أى مشكلة لموضوع البحث أن تكون محددة تحديداً كافياً تمكن الباحث التاريخى من تحليلها تحليلاً كافياً يسمح بدراستها بصورة جيدة . لذلك يراعى عند اختيار موضوع البحث التاريخي عدة اعتبارات من أهمها :

أ - أهمية الموضوع والهدف الأساسى من دراسته .

ب- جدة الموضوع أو حداثته .

جـ- قدرة الباحث ومرانه على استخدام المنهج التاريخى ومدى توافر الوقت لديه .

د - مدى توافر البيانات والمصادر التاريخية عن بحثه .

هـ- التكاليف المادية التى يحتاج إليها عند تنفيذ البحث .

جمع الحقائق المتعلقة بموضوع البحث :

يحرص الباحث التاريخى على جمع مادة تاريخية لموضوع دراسته أو للمشكلة موضوع بحثه . ويثير جمع المادة التاريخية ودراستها وتحليلها عدة صعوبات للباحث لأنه لا يعيش الزمن أو العصر الذى يدرسه . ومن هنا كان عليه أن يجمع مادته العلمية عن طريق مصادر أخرى تشمل الرجوع إلى آثار ومخلفات الماضى أو إلى خبرات وملاحظات وروايات أشخاص آخرين . وهذه المصادر بالطبع تتفاوت فيما بينها من حيث كونها مصادر أولية أو ثانوية . وسنعود إلى تفصيل الكلام عن هذه المصادر فيما بعد .

مصادر المادة العلمية :

تصنف مصادر المادة التى يقوم عليها البحث التاريخى عادة إلى مصادر أولية أو ثانوية، «والمصادر الأولية» مصادر أصيلة أو غير مشتقة وغير ناقلة عن غيرها . وهى تتكون من الاثار أو مخلفات الماضى . وبعضها من الأشياء التى لم يقصد بها تزويد الباحث بالمعلومات . ولكنها عاشت على مر الزمن دون عمد، على شكل أدوات وأشياء فنية ، وآنية ورسائل شخصية وسجلات وأعمال أو سجلات مدرسية، وكتب وبقايا معمارية ونقود .. إلخ . وهى تعطى معلومات عن طريق حياة شعب . ويمكن أن تكون ناقلة للحقائق عن عمد مثل التاريخ للأحداث واليوميات والتسجيل على الأشرطة والأغانى القصصية والصور والأفلام والنقود والأوسمة . وقد يجد فيها الباحث المتعة الكبرى والمساعدة على فحص المصادر الأولى الموثوق بها، والتى قد يجدها فى المجموعات الخاصة أو المتاحف . وتوجد وسائل مثل دليل المتاحف تساعد الباحث فى هذا السبيل . ويمكن أن تكون ذات نفع كبير فى توجيه الباحث إلى

المعروضات التى قد تكون مصدراً أوليا فى مجال أهتمامه . وقد يغطى الدليل كل الميدان الخاص بالمتاحف .. وقد يضم أيضاً مراكز واتحادات الفنون والبيوت والجمعيات التاريخية ومتاحف الكليات والجامعات، ومتاحف الأطفال . وقد توجد ملاحظات لقوائم المتاحف توضح المجالات ذات الأهمية والمجموعات الأثرية الخاصة .

أما المصادر «الثانوية» أو المشتقة، فهى تقارير أو كتابات لأشخاص لم يكونوا شهود عيان حقيقيين للظواهر التى يكتبون عنها ولكنهم استخدموا مراجع أخرى ثانوية فى إعداد مادتهم .. ومع أن المصادر الثانوية أقل فى قيمتها العلمية من المصادر الأولية إلا أنها مفيدة لأى بحث .

معايير صدق النتائج :

هناك بعض المعايير التى يستخدمها المؤرخون للتثبت من صحة النتائج التى يستخلصونها والحكم على مدى صدقها . منها ما يسمى بمعيار الثبات أو التماسك الداخلى . ويقصد به ما إذا كانت الأفكار تتطابق مع أفكار أخرى مستخلصة من مصادر مختلفة . ذلك أن النتائج التى يتوصل إليها المؤرخون من مصادر مختلفة عن حدث تاريخى معين يجب أن تكون متطابقة متلائمة وغير متناقضة حتى يمكن الإطمئنان إلى صحتها والتثبت من صدقها . إن هذا النوع من التثبت الذى يستخدمه المؤرخون عادة مماثل لما يستخدمه العلماء . بيد أن العلماء لديهم طريقة أخرى للتثبت من النتائج وذلك عن طريق التنبؤ على أساس هذه النتائج وتحديد ما إذا كانت التنبؤات صحيحة أم لا . فى حين أن المؤرخ لا يقدر على استخدام الطريقة الأخيرة ليتأكد من نتائجه . إن الصعوبات التى يواجهها المؤرخ عندما يحاول أن يتأكد من صحة نتائجه هى أن هذه النتائج قد تتضمن درجة من الأحكام الذاتية أو الشخصية بل والتعصب أحياناً . ومن معايير الحكم على مدى صدق النتائج المستخلصة أيضاً ما يتعلق بتقييم الوثيقة كمصدر للمعلومات وهو ما سنفصلة فى السطور التالية :

تقييم الوثيقة كمصدر للمعلومات :

تتمثل قيمة الوثيقة وأهميتها بالنسبة للبحث التاريخى فى مقدار ما تقدمه هذه الوثيقة من معلومات صادقة موثوق بها . ويمكننا أن نستعين بالمعايير الآتية لتقييم الوثيقة كمصدر للمعلومات :

أ - كفاءة مؤلف أو كاتب الوثيقة :

لاشك أن من أهم معايير الحكم على الوثيقة ما يتعلق بمدى كفاءة مؤلفها وشهرته وسمعته العلمية . فالمصادر التى يكتبها مؤرخون محترفون لابد من أنها تختلف فى قيمتها عن تلك التى يكتبها هواة . فمن المسلم به أن الخبرة والتدريب والحس المهنى الذى يتميز به المؤرخ الكفء تجعل لكتابته قيمة علمية كبيرة . كما تضفى على القارئ ثقته واطمئنانه إلى أن ما يقرؤه إنما تم من قبل شخص مقتدر له نظرته العلمية الفاحصة .

ب- علاقة المؤلف بالحدث الذى يؤرخ له :

من المسلم به أنه كلما كان المؤلف قريباً من الحدث الذى يسجله أو يؤرخ له كانت الوثيقة أو المصدر أكثر فائدة وقيمة . فما يكتبه مؤرخ معاصر للأحداث التى يصفها يستحق اهتماما كبيراً يفوق ما يكتبه مؤرخ لاحق . فالعنصر الزمنى مهم فى تحديد قيمة الوثيقة وأهميتها النسبية .

جـ- مدى الضغوط التى خضع لها المؤرخ :

قد يخضع المؤرخ أثناء كتابته التاريخية لشتى أنواع الضغوط الشخصية أو الاجتماعية أو السياسية . وبالتالى تكون كتابته صورة مشوهة لما حدث . فقد تملى عليه تحيزاته أو تعصباته الشخصية إغفال أشياء معينة من الحدث لا تتفق مع ميوله أو رغباته . أو قد يتصور أشياء وهمية لا وجود لها مما يحمله على الزيادة والنقصان. وهو ما يؤثر بالطبع علي دقة تسجيله للأحداث . وقد يكون الجو السياسى أو الاجتماعى العام الذى يعيش فيه حائلاً دون الكتابة الصريحة أو الصحيحة عن الحدث نفسه . وكل هذه الأمور تقلل من قيمة الوثيقة كمصدر للمعلومات يمكن الاعتماد عليه والاطمئنان إليه .

د- الهدف الذى يرمى إليه المؤرخ :

قد تكتب الوثيقة لأغراض مختلفة . فقد يكون الهدف من كتابتها الإعلام أو التذكر كما فى المذكرات الشخصية . وقد يكون هدف الوثيقة التوجيه كما فى الأوامر أو القرارات أو التوجيهات أو اللوائح . وقد يكون هدف الوثيقة إحداث تأثير معين

على القارئ كما هو الحال فى الدعاية والإعلان . وقد يكون الهدف من الوثيقة الترويح عن النفس كما فى المراسلات الشخصية . ولاشك أن الهدف من كتابة الوثيقة يعتبر عاملاً رئيسياً فى الحكم عليها كمصدر تاريخى .

التحليل والنقد التاريخى :

يجب على الباحث بعد أن تقتبس المادة من الوثائق المختارة أن يقرر أى الأدلة حقيقى وجدير بالتصديق، ومن ثم يستحق النقل والتفسير . ويطلق على هذا الحكم «النقد التاريخى» . ويمكن أن يكون على نوعين : نقد خارجى ونقد داخلى . ويتعلق النقد الخارجى بالأصالة أو صحة المعلومات . ويكون الاهتمام فى هذه الحالة بالكشف عن التزويرات والتلفيقات كما يتضمن إثبات عمر الوثائق وأصالة الخط اليدوى، ومعرفة الاستعمال اللغوى وتاريخ الفن . ويحتاج هذا كله إلى رأى محنك فى مجالات دراسية أخرى مما لا تحيط به قدرات الباحث المبتدئ .

والخط الفاصل بين النقد الخارجى والنقد الداخلى غير محدد تحديداً دقيقاً . ومع أن النقد الداخلى أمر شديد الصعوبة والتعقيد فى كثير من الأحيان فهو متأصل فى أى عمل من البحث التاريخى . وهو يتضمن حكم الباحث على إمكانية تصديق واحترام الدليل الذى يضمنه دراسته، وذلك بعد أن تحسم مسألة تأليف الوثيقة وأصالتها . وفى كل مرة يسلم الباحث بجزء من الدليل، أو يرفض جزءاً آخر أو يفسر معلومات فى دراسته فإنه يكون قائماً بنقد تاريخى . ويجب على دارس التاريخ أن يسأل ويحلل . فهو لا يستطيع أن يسلم بكل شئ يجده مكتوباً فى الكتب أو المقالات على أنه حقائق . ويجب أن يتعلم تقييم الأدلة المتضاربة وغير المتكاملة . وهناك عدة إرشادات تؤدى إلى هذا العمل . منها مثل هذه التساؤلات : من هو الشخص الذى ننظر فى أحكامه ؟ ولماذا كان يكتب هذا ؟ ولمن كان يكتب ؟ وما هى الظروف الخاصة التى حفزته إلى الكتابة ؟ وماذا كان موقفه فى المسألة التى يجرى بحثها ؟ . إن المقارنة بين تقارير شواهد عدة مستقلة قد توضح التقرير الخاص بحادثة ما . ويحسن بالباحث ألا يعتمد على نوع واحد من المصادر ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

إن تقييم المعلومات والموافقة عليها ورفضها يؤدى فى النهاية إلى تكوين فرض. وعندما يحين الوقت لكى يكون الباحث فرضه يجب عليه أن يتسع تفكيره النقدى ليشمل نفسه . ويجب عليه أن يستثير التفكير فيما إذا كان تحيزه أو تعصبه قد لعب دوراً فى تكوين فرضه . ويجب أن يتأكد أنه لم يشوه حقائقه بحذف معلومات تتعلق بالموضوع ولكنها لا تناسب الباحث أو أنه وصل فى التفسير أبعد من الحدود المتاحة للوثائق. ويجب على المؤلف عند تنظيم مادته، أن يكون لديه إحساس بالتناسب والصدق فى تطور الأحداث، وهو يفعل هذا بتأكيد عادلٍ على مظاهر معينة من دراسته ومن خلال تسلسل سرده الزمنى . ويجب أن يكون الباحث دقيقاً فى فحص مصادره للتعرف على عدم الدقة أو التحيز الذى يمكن أن يؤثر على حكمه . ولا يعنى هذا أنه قد لا يصل إلى نتائج أو لا يحدد اتجاهات أو لا يقوم بتنبؤات على الحقائق التى قدمها فى دراسته . فكتابة التاريخ التربوى لا تعنى تسجيل الحقائق دون تفسيرها، والمؤرخون المحايدون نادرون، والأسئلة التى يجب أن يوجهها الباحث إلى نفسه هى : هل نتائجى وآرائى مؤسسة على حقائق لها وثائقها الواضحة وعلى مصادر تحققت من صدقها وأصالتها ؟ هل أهملت عامداً فى ضم دليل غير مناسب و عدم تأييده بغير حق وذلك لتدعيم فرضى ؟ ولنقتبس من كلام جون بيسيت مرة خرى قوله : «إن عدم التحيز وليس الحياد هو الذى يميز العرض الصحيح العادل والمناسب للتاريخ فى حدود الدراسة المنظمة» .

تصنيف الحقائق وتفسيرها :

إن الحقائق الجزئية التى يستخدمها الباحث من مصادر بحثه لا تصبح لها قيمتها إلا إذا صنفت فى مجموعات تحتوى كل منها على أمور متجانسة . ويتم تصنيف هذه الحقائق عادة على أساس المكان أو الزمان أو كليهما حتى يمكن الكشف عن الاتجاهات العامة للظاهرة موضوع الدراسة ومعرفة العوامل التى خضعت لها في تطورها وتغيرها وانتقالها من حال إلى حال .

يجب على الباحث بعد جمع الحقائق أن يقوم بتحليلها ونقدها بغرض التحقق منها ومعرفة حقيقتها وكذلك التحقق من مصادرها ومعرفة شخصية صاحبها . وهنا يجب

أن يتحرى الباحث الموضوعية والدقة للتوصل إلى نتائج تاريخية يمكن الاعتماد عليها. وتزداد الحاجة إلى نقد المادة التاريخية كلما بعد الزمن بين واقعة معينة ووقت تسجيلها، وكلما رأى الباحث احتمالاً للتحيز فى المادة المسجلة. ويلزم الباحث فى عملية النقد هذه معارف ومهارات واتجاهات معينة حتى يصل إلى حكم تاريخى سليم أو مجموعة من البيانات والوقائع المحققة التى يمكن قبولها باعتبارها جديرة بالثقة.

كتابة البحث التاريخى:

إن كتابة البحث التاريخى عمل عقلى فكرى بالدرجة الأولى ويتطلب قدرة على الابتكار والتصور وإدراك العلاقات والربط بينها. وينبغى أن يكتب البحث بأسلوب موضوعى سليم. وتمثل كتابة البحث الخلاصة الأخيرة التى تتوج مجهود الباحث وتُضفى عليه أهمية خاصة. وهى تستلزم صياغة النتائج بصورة موضوعية مع الإشارة إلى مصدر كل فكرة وكل عبارة مقتبسة. كما تستلزم ترتيب المصادر والمراجع حسب أهميتها العلمية. ولقد تبين من تقويم البحوث التاريخية لطلاب الدراسات العليا تعرضهم لخطأ أو أكثر من أهمها:

أ - المبالغة فى التبسيط والإخفاق فى الملاحظة الحقيقية. ويرجع ذلك إلى أن أسباب الوقائع كثيراً ما تكون متعددة، ومعقدة، وليست سبباً واحداً أو بسيطاً.

ب- المبالغة أو التعميم على أساس أدلة وشواهد غير كافية. واستناد الاستنتاجات إلى مواقف متشابهة تشابهاً سطحياً.

جـ- الإخفاق فى تفسير الكلمات والتعبيرات فى ضوء معناها المقبول فى فترة مبكرة.

د- الإخفاق فى التمييز بين الوقائع ذات الدلالة فى موقف والوقائع غير الهامة أو التى لا تتصل بالموقف.

ولهذا ينبغى على طالب البحث التاريخى فى التربية أن يحرص على أن يتجنب هذه الأخطاء وأن يحترس من الوقوع فيها.